جنة السالكين

في شرح الوصية الصغرى
لشيخ الإسلام ابن تيمية

د. سلطان بن عبد الرحمن العميري
أستاذ العقيدة بجامعة أم القرى

دار مقارنة للنشر والتوزيع

جنة السالكين
في شرح الوصية الصغرى
لشيخ الإسلام ابن تيمية

أشهر الذنوب المنتشرة بين المشتغلين بالعلم:

بما أنّ هذا الشرحَ موجهٌ من حيث الأصل لطلبة العلم والمشتغلين بالعلوم الشرعية، فسأذكر قدرًا من الأمراض المنتشرة بينهم حتى يكونوا على علمٍ بها؛ فيحذوا من الوقوع فيها، وسنلاحظ أن أكثر تلك الأمراض راجعة إلى ضَعف الورع والإيمان، وليس إلى نقص العلم:

المرض الأول: الرياء:

فطلبة العلم من أكثر الناس تعرّضًا لهذا المرض، وقد يصدر منهم أنواع من الرياء القبيح، فترى بعضَهم يظهر حرصَه في طلب العلم لأجل أن يمدحَه الناس عليه، وبعضهم يظهر قوته العلمية في التقرير أو في النقاش والردّ، لا لأجل نصرة الحقّ ونفع الناس، ولكن لأجل مدح الناس وثنائهم عليه، وترى بعضهم يظهر معرفته بالكتب والمصنَّفات لأجل أن يحكم الناس عليه بالتميز.

ومن أعجب أنواع الرياء التي يقع فيها بعض طلبة العلم المراءاة بالشيوخ، فترى بعضهم يظهر معرفته بالعلماء والمشايخ ودراسته لديهم وأخذه للإجازات منهم لأجل أن ينال إعجابَ الناس ومدحهم.

وكذلك المراءاة بالكتب، فترى بعضَهم يستعرض ما يقتنِيه من كتب أو ما يعرفه عنها طلبًا لثناء الناس ومدحهم؛ لتعلو درجتُه عندهم، وقد يُظهر بعضهم عن نفسه أنه قرأ كتابًا مُهمًّا وينقل عنه، أو يثني على كتاب أو يذمّه ليقال عنه: قارئ أو عارف بالكتب!

وكل هذه صور قبيحة من الرياء، فمتى ما دخل في قلب طالب العلم النظر إلى الناس وانتظار مدحهم والثناء عليهم، فقد دخل في ساحة الرياء القبيحة.

وقد كان السلف الصالح من أشدّ الناس حذرًا من الرياء، وخوفًا من الوقوع فيه، يقول أبو حازم: «اكتُم حسناتك كما تكتَّم سيّئاتك»[١]. ويقول الحسن البصري: «كان أحدهم يبكي إلى جنب صاحبه فمَا يعلم به»[٢]، ويقول يزيد بن حميد: «كان الرجل يتعبّد عشرين سنة وما يَعلَم به جارُه»[٣].

ويقول الحسن البصري: «إن كان الرجل ليجتمع إليه القوم أو يجتمعون يتذاكرون، فتجيء الرجلَ عبرتُه فيردّها، ثم تجيء فيردّها، ثم تجيء فيردّها، فإذا خشي أن يفلت قام»[٤]، ويقول عبد الرحمن بن مهدي: «كنت أجلس يوم الجمعة، فإذا كثر الناس فرحت، وإذا قلّوا حزنتُ، فسألت بشر بن منصور، فقال: هذا مجلس سوء، فلا تعُد إليه، فما عدتُ إليه»[٥].

ويقول ابن الجوزي: «متى نظر العامل إلى التفات القلوب إليه فقد زاحم الشركُ نيتَه»[٦]، ويقول ابن القيم: «لا يجتمع الإخلاص في القلب ومحبّة المدح والثناء، والطمع فيما عند الناس، إلا كما يجتمع الماء والنار»[٧].

المرض الثاني: الغيبة:

فالمشتغلون بالعلم لديهم أنواع من الغيبة المغلَّفة بغلاف النصح والتألّم على

---

(١) حلية الأولياء (٣/ ٢٣٩).
(٢) الإخلاص والنية، ابن أبي الدنيا (٦١).
(٣) المصدر السابق (٦٣).
(٤) المصدر السابق (٦٤).
(٥) سير أعلام النبلاء (٩/ ١٩٦).
(٦) صيد الخاطر (٣٧٤).

الحقّ، وهي في الحقيقة وقيعةٌ في أعراض المسلمين وبهتان لهم.

وفي التنبيه على هذا المرض يقول ابن الجوزي: «من تلبيس إبليس على أصحاب الحديث قدحُ بعضهم في بعض طلبًا للتشفّي، ويخرجون ذلك مخرجَ الجرح والتعديل الذي استعمله قدماء هذه الأمة للذبّ عن الشرع، والله أعلم بالمقاصد، ودليل مقصد خبث هؤلاء سكوتُهم عمن أخذوا عنه...

وأما منبع الغيبة من القرّاء والنُّساك فمن طريق التعجُّب، يبدي عوار الأخ ثم يتصنّع بالدعاء في ظهر الغيب، فيتمكّن من لحم أخيه المسلم، ثم يتزيّن بالدعاء له، وأما منبع الغيبة من الرؤساء والأساتذة فمن طريق إبداء الرحمة والشفقة، حتى يقول: مسكين فلان، ابتلي بكذا، وامتحِن بكذا، نعوذ بالله من الخذلان، فيتصنّع بإبداء الرحمة والشفقة على أخيه، ثم يتصنّع بالدعاء له عند إخوانه، ويقول: إنما أبديتُ لكم ذاك لتكثروا دعاءكم له، ونعوذ بالله من الغيبة تعريضًا أو تصريحًا»[1].

ويقول ابن تيمية: «منهم من يخرج الغيبة في قوالب شتى: تارة في قالب ديانة وصلاح، فيقول: ليس لي عادة أن أذكر أحدًا إلا بخير، ولا أحب الغيبة ولا الكذب، وإنما أخبركم بأحواله، ويقول: والله إنه مسكين، أو رجل جيّد، ولكن فيه كيت وكيت، وربما يقول: دعونا منه، الله يغفر لنا وله، وإنما قصده استنقاصه وهضمًا لجنابه، ويُخرجون الغيبة في قوالب صلاح وديانة، يخادِعون الله بذلك كما يخادعون مخلوقاته، وقد رأينا منهم ألوانًا كثيرة من هذا وأشباهه.

ومنهم من يرفع غيره رياء؛ فيرفع نفسَه، فيقول: لو دعوت البارحة في صلاتي

(١) تلبيس إبليس (١٤٣).

لفلان؛ لما بلغني عنه كيت وكيت؛ ليرفع نفسه، ويضعه عند من يعتقده، أو يقول: فلان بليد الذهن، قليل الفهم، وقصده مدح نفسه، وإثبات معرفته، وأنه أفضل منه.

ومنهم من يحمله الحسد على الغيبة؛ فيجمع بين أمرين قبيحين: الغيبة، والحسد، وإذا أثنى على شخص أزال ذلك عنه بما استطاع من تنقّصه في قالب دين وصلاح، أو في قالب حسد وفجور وقدح؛ ليسقط ذلك عنه.

ومنهم من يخرج الغيبة في قالب تمسخر ولعِب؛ ليضحك غيره باستهزائه ومحاكاته واستصغار المستهزَأ به.

ومنهم من يخرج الغيبة في قالب التعجّب، فيقول: تعجبتُ من فلان! كيف لا يفعل كيت وكيت؟! ومن فلان كيف وقع منه كيت وكيت؟! وكيف فعل كيت وكيت؟! فيخرج اسمه في معرض تعجّبه.

ومنهم من يخرج الاغتمام، فيقول: مسكين فلان، غمّني ما جرى له، وما تمّ له. فيظنّ من يسمعه أنه يغتمّ له ويتأسّف، وقلبه منطوٍ على التشفّي به، ولو قدر لزاد على ما به، وربما يذكره عند أعدائه ليتشفَّوا به، وهذا وغيره من أعظم أمراض القلوب والمخادعات لله ولخلقه.

ومنهم من يُظهر الغيبة في قالب غَضب وإنكار منكَر، فيظهر في هذا الباب أشياء من زخارف القول، وقصده غير ما أظهر»[1].

٦ وقد كان السلف الصالح من أشدّ الناس نُفرة من هذا المرض القبيح، يقول الحسن البصري: «واللهِ، للغيبة أسرع في دين المؤمن من الآكلة في جسده»[2]، ويقول أبو

(١) مجموع الفتاوى (٢٨/ ٢٣٧).

(٢) الصمت، ابن أبي الدنيا (١٢٩).

عاصم: «لا يذكُر الناسَ بما يكرهون إلا سفلة لا دين له»[١]، ويقول بكر المزَني: «إذا رأيتم الرجل موكّلًا بعيوب الناس ناسيًا لعيبه فاعلموا أنه قد مُكِر به»[٢]، ويقول عون ابن عبد الله: «ما أحسب أحدًا تفرغ لعيب الناس، إلا من غفلة غفلها عن نفسه»[٣].

ومن شدّة حذر السلف الصالح من الغيبة أنهم كانوا لا يسمحون بوقوعها في مجالسهم، فقد كان عبد الله بن أبي زكريّا لا يدع أحدًا يغتاب في مجلسه، ويقول: «إن ذكرتم الله أعنَّاكم، وإن ذكرتم الناس تركناكم»[٤]. وكان أبو سنان الأسديّ لا يتكلم أحد في مجلسه بغيبة أحدٍ، فإن تكلم أحد بالغيبة نهاه أو ترك المجلس[٥]. وكان سعيد بن جبير لا يدع أحدًا يغتاب أحدًا في مجلسه[٦]. وعن علي بن الحسين أنه سمع رجلًا يغتاب رجلًا فقال: «إياك والغيبة؛ فإنها إدام كلاب الناس»[٧]. وسمع قتيبة بن مسلم رجلاً يغتاب رجلاً فقال: «أما والله لقد تلمّظتَ بمضغة طالما لفَظَتها الكرام»[٨]. وقال موسى بن إبراهيم: حضرتُ معروفًا الكرجيّ وعنده رجل يغتاب رجلًا آخر، فقال له معروف: «اذكر القطن إذا وضعوه على عينيك»[٩].

---

(١) بهجة المجالس، ابن عبد البر (١/ ٤٠٠).

(٢) صفوة الصفوة (٣/ ٢٤٩).

(٣) صفة الصفوة (٢/ ٥٨).

(٤) الصمت، ابن أبي الدنيا (٢٦٠).

(٥) ترتيب المدارك (٤/ ١٠٤).

(٦) سير أعلام النبلاء (٤/ ٣٣٦).

(٧) ذم الغيبة والنميمة، ابن أبي الدنيا (٤٧).

(٨) المصدر السابق، (٤٨).

(٩) حلية الأولياء (٨/ ٣٦٤).

المرض الثالث: النميمة:

وكثير من طلبة العلم واقع في هذا المرض العُضال، فتراه ينقل كلام إخوانه بعضهم في بعض، إما بدعوى النصيحة أو الأمانة، وهو في الحقيقة نمّام مفسد، وكم وقعت من قطيعة بين الأصحاب والزملاء في الطلب بسبب نقل كلام لهم على جهة الإفساد بحجّة الأمانة والنصح.

وهذا الأمر قد يقع بين الشيوخ والمربِّين، فقد وقعت أمور قبيحة بسبب نقل بعض الطلبة كلامَ الشيوخ بعضهم في بعض.

بل إن بعض الطلبة تسبَّب بنميمته في وقوع المفاسد العظيمة بين الشيوخ وتلاميذهم، فتراه ينقل كلام الشيخ في التلميذ، أو كلام التلميذ في الشيخ؛ لينال حضوةً عند شيخه، وكلّ ذلك نميمة قبيحة لا يليق بطالب العلم الشرعي أن يقع فيها.

يقول الحسن البصري: «من نقل إليك حديثًا، فاعلم أنه ينقل إلى غيرك حديثَك»[١]، ويقول الإمام الشافعي: «من نمَّ لك نمَّ بك، ومن نقل إليك نقل عنك، ومن إذا أرضيتَه قال فيك ما ليس فيك إذا أغضبتَه قال فيك ما ليس فيك»[٢].

المرض الرابع: الكبر:

ومرجع الكبر إلى التعالي عن قبول الحق، واحتقار الناس، وتوهُّم أنه أعلى منهم قدرًا ومكانة.

فكما أن الكبر عند عوامّ الناس يظهر في الملبس مثلًا، أو في المركب، أو في

---

(١) تنبيه الغافلين (١٧٣).

(٢) مناقب الشافعي، البيهقي (٢/ ١٩٨).

البيت، فبعض طلبة العلم لديهم أنواع من الكبر، تظهر في عدم قبول الحق، أو في عدم الأخذ بالحجة، أو احتقار الآخرين وإنزالهم دون منزلتهم، أو نحو ذلك.

وترى بعضهم لا يقبل بالحق ممن هو دونه في السنّ أو المنزلة، وترى بعضهم يريد من الناس أن ينادوه بألقاب التفخيم والعلوّ، وإن لم يفعلوا ذلك معه وَجد في نفسه عليهم.

ومن أعجب صور الكبر: الكبر بالشيوخ، فترى بعضهم يتفاخر على الناس بأنه درَس على فلان وفلان من العلماء، وأخذ منهم إجازات ونحوَها، وتراه ينظر إلى من لم يأخذ عن أولئك العلماء بعين الانتقاص والتحقير، بل ربما لا يقبل الحجّة إلا إذا جاءت من طريق أولئك العلماء، ويرى أن ما جاء عن غير طريقهم أقلّ منزلةً وثبوتًا.

ومن صور الكبر التي يُبتلى بها بعض المشتغلين بالعلم: التقليلُ من قدر المبرِّزين في العلم، فترى أحدَهم يسعى إلى التقليل من إتقان من هو مبرِّز في العلم، والتحقير من شأنه، ومحاولة إلصاق أوصاف النَّقص به، وتتبّع ما في كلامه من خلَل وإظهاره للناس.

ومن صور الكبر: التكبّر في الرجوع عن الخطأ، فترى بعضَهم يظهر له خطأ قوله، فلا يرجع حتى لا يقال: فلان رجع عما صدر منه من خطأ، فتقلّ منزلته عند الناس، وهو يراها عاليةً، ويريد لها أن تكون كما يراها.

وقد كثُر حديث أئمّة السلف عن ضرورة التواضع للحقّ، وخطر الكبر والتعاظم، يقول الفضيل بن عياض: «التواضع أن تخضعَ للحق وتنقادَ له، ولو سمعته من صبيّ قبِلته منه، ولو سمعته من أجهل الناس قبِلته منه»[1].

(١) التواضع والخمول، ابن أبي الدنيا (١١٨).

المرض الخامس: البغي والظلم:

وهذا المرضُ من أكثر الأمراض شيوعًا وانتشارًا بين المشتغلين بالعلم، والمعنى الجامع له: مجاوزَة العدل في الحكم على الآخرين والمبالغة فيه.

فترى بعضَهم إذا رأى أخاه أخطأ في مسألة يبالغ في ذمّ ذلك الخطأ، ويتجاوز إلى ذمّ الشخص نفسِه، وإلصاق التّهم به، وتجهيله، ووصفه بأوصاف ليست فيه.

وبعضُهم يجعل ذلك الخطأ مسوِّغًا له للوقيعة في أخيه، وغيبته في المجالس؛ بحجة الحميّة للدين، والحُرقة على السنّة.

بل بعضهم يَحمِل كلامَ أخيه الصحيح أو المحتمِل على أسوأ المعاني، ويُحمِّل كلام أخيه ما لا يحتمل، حتى يُلصق به ما يريد إلصاقَه من التهَم والانحراف، وهذا من أظهر صوَر البغي والظلم.

وهذا كلّه يدخل في إيذاء المسلم المحرَّم، وكثير من الناس يؤذون إخوانهم بما يقع منهم من الظلم والبغي والتطاول عليهم في عقائدهم وأخلاقهم.

يقول الفضيل بن عياض: «والله، ما يحلّ لك أن تؤذي كلبًا ولا خنزيرًا بغير حقّ، فكيف تؤذي مسلما؟!»[1].

ويقول محمد بن كعب القُرَظي: «ثلاث خصال من كنّ فيه كنَّ عليه: البغي، والنكث، والمكر». وقرأ: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ [فاطر: ٤٣]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم﴾ [يونس: ٢٣]، ﴿فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ

(١) سير أعلام النبلاء (٨/ ٤٢٧).

عَلَىٰ نَفۡسِهِۦۖ﴾ [الفتح: ١٠][1]. ويقول ابن عبد البر: «قالوا: ثلاثة عائدة على فاعلها: البغي، والمكر، والنكث»[2].

والغريب أنّ بعض من يقع في البغي والظلم إذا عُرضت عليه قضيّة تتعلّق بأموال الناس أو أحوالهم، تجده يحتاط فيها غايةَ الاحتياط، ويُذكّر المتساهلين فيها بتقوى الله، والوقوف بين يديه، ولكن إذا عُرضت عليه قضيّة تتعلّق بدين الناس وعقائدهم تراه ينسَى ذلك كلّه، ويخوض فيها بغير عدل ولا علم، وهذا من أغرب الأحوال وأشنعها، يقول ابن تيمية: «الحكم بين الناس في عقائدهم وأقوالهم أعظمُ من الحُكم بينهم في مَبايِعهم وأموالهم»[3].

المرض السادس: الكذب:

ومع أن الكذب خلُق ذميم، إلا أنه أشدُّ ذمًّا وقُبحًا حين يصدر من المشتغلين بطلب العلم، فبعض طلبة العلم قدِ ابتلي بهذا المرض، فتراه يدَّعي لنفسه أمورًا ليست فيه، فيذكر أنه قرأ كذا وكذا من الكتب وهو لم يفعل، ويدَّعي أنه التقى بكذا وكذا من العلماء وهو لم يلتقِ بهم، ويدَّعي أنه بحث كذا وكذا من المسائل العلمية وهو لم يبحَث، ويدَّعي أنه يملك كذا وكذا من الكتب وهو لا يملك. ومرجِعُ هذا الداء هو حبُّ التشبُّع بما لم يُعطَ، وهو من الزور المذموم.

بل بعضهم يفتري الأخبار الكاذبة ويَنقلها بين طلبة العلم والشيوخ، فينسب إلى أصحابه أمورًا لم يفعلوها، وينسب إلى الشيوخ أقوالًا لم يتفوَّهوا بها.

---

(١) ذم البغي لابن أبي الدنيا (٣٦).

(٢) بهجة المجالس (١/ ٤٠٧).

(٣) درء تعارض العقل والنقل (٧/ ٤٦٤).

وهذا مرض قبيح، منافٍ للاستقامة والخوف من الله، ومعارضٌ لطبيعة الاشتغال بطلب العلم، والبحث في معاني النصوص الشرعية.

المرض السابع: العُجب:

وهو أحَد أعظم الآفات التي تفسِد الأعمال، وتكدِّر العلاقة مع الله تعالى، وهو داء ينافي الخضوع لله تعالى، بل فيه سوء أدب معه سبحانه، فالمعجَب بعِلمه وحاله وعمَله كأنه يرى لنفسه حقًّا على الله تعالى، فكما أنّ المرائي يشرك الناس مع الله فالمعجَب يشرك نفسَه مع الله.

يقول ابن عقيل: «الإعجابُ ليس بالفرَح، والفرح لا يقدَح في الطاعات؛ لأنها مسرَّة النفس بطاعة الرب ﷻ، ومثل ذلك مما سَرّ العقلاء وأبهج الفضلاء... وإنما الإعجاب استكثارُ ما يأتي به من طاعة الله ﷻ، ورؤية النفس بعين الافتخار... إنّ العُجب يدخل من إثبات نفسك في العمل، ونسيان ألطاف الحقّ، ومن إغفال نعَمِه التي لا تحصَى، وإلا فلو لحظ العبد اتصال النعم لاستقلّ عمله»[1].

وللعُجب أضرارٌ قبيحة على صاحبه، ومن تلك الأضرار: أنه من أقوى الأسباب الداعية إلى الكبر، ولا يكاد يوجد العُجب إلا ومعه الكبر، فكلّ معجَب بنفسه فهو واقع في الكبر واحتقار الآخرين. والعُجب يدعو إلى إهمال الذنوب ونسيانها، فلا يُحدِث العبدُ بعد ذلك توبةً، ويمنع عن سؤال أهل العلم.

وفي بيان شيء من مضارّ العجب يقول الغزالي: «اعلم أن آفات العُجب كثيرة،

(١) سير أعلام النبلاء (١/ ١٣٣).

فإن العُجب يدعو إلى الكبر؛ لأنه أحد أسبابه كما ذكرناه، فيتولَّد من العُجب الكبر، ومن الكبر الآفات الكثيرة التي لا تخفى. هذا مع العباد، وأما مع الله تعالى فالعُجب يدعو إلى نسيان الذنوب وإهمالها، فبعض ذنوبه لا يذكرها ولا يتفقَّدها؛ لظنّه أنه مستغن عن تفقّدها، فينساها، وما يتذكّره منها فيستصغره ولا يستعظمه، فلا يجتهد في تداركه وتلافيه، بل يظن أنه يغفر له.

وأما العبادات والأعمال فإنه يستعظمها ويتبجّح بها، ويمنّ على الله بفعلها، وينسى نعمة الله عليه بالتوفيق والتمكين منها، ثمّ إذا أعجِب بها عمي عن آفاتها...

والمعجَب يغترّ بنفسه وبرأيه، ويأمن مكر الله وعذابَه، ويظن أنه عند الله بمكان، وأن له عند الله منةً وحقًّا بأعماله التي هي نعمة وعطيّة من عطاياه، ويخرجه العُجب إلى أن يُثني على نفسه ويحمدها ويزكّيها، وإن أُعجب برأيه وعمله وعقله منَع ذلك من الاستفادة، ومن الاستشارة والسؤال، فيستبدّ بنفسه ورأيه، ويستنكف من سؤال من هو أعلم منه، وربما يُعجب بالرأي الخطأ الذي خطَر له، فيفرح بكونه من خواطره، ولا يفرح بخواطر غيره، فيصرّ عليه، ولا يسمع نصحَ ناصحٍ، ولا وَعظ واعظ، بل ينظر إلى غيره بعين الاستجهال، ويصرّ على خطئه... فهذا وأمثاله من آفات العُجب، فلذلك كان من المهلِكات، ومن أعظم آفاته أن يفتر في السعي؛ لظنه أنه قد فاز، وأنه قدِ استغنى، وهو الهلاك الصريح الذي لا شبهَة فيه»[1].

ولأجل هذا كان الأئمة والعُبّاد من أشدّ الناس حذرًا من هذا الداء العُضال، يقول مطرف بن عبد الله: «لأَن أبيت نائمًا وأصبح نادِمًا أحبُّ إليَّ من أن أبيت قائمًا

(١) إحياء علوم الدين (٣/ ٣٧٠).

وأصبح معجَبًا»[١]، ويقول الفضيل بن عياض: «آفة القُرّاء العُجب»[٢]، ويقول ابن المبارك: «لا أعلم في المصلِّين شرًّا من العُجب»[٣].

المرض الثامن: الحسد:

والحسد آفة من أشدّ الآفات التي تكثر بين المشتغلين بالعلم الشرعي والدعوة إلى الله، وهو مرض خطير يحدِث الشقاق والبغي والظلمَ، ويشقّ الصفوف، ويمحَق البركة، ويزيل نور الهداية والدعوة، وهي آفة تزيد من قسوة القلب، وتزيد من البعد عن أسباب الخير.

وللحسد علامات كثيرة، منها[٤]:

١- الفرح بوقوع الخطأ من أخيه، وهذا مرض قلبيّ يكثر بين الأقران من طلبة العلم والشيوخ، فترى أحدَهم يفرح حين يرى أخاه المسلم قد وقع في خطأ ينقدُه عليه الناس؛ لأن هذا الخطأ يقلّل من منزلته، ويجعله عرضة للانتقاض.

٢- الفرح بما يفوت قرينَه منَ الخير، كأن يفرحَ بتغيُّب قرينه عن الدرس العلمي، أو يفرح بعدم حصول قرينه على بعض المراجع المتعلّقة بالعلم، أو يفرح بعدم مدح شيخه لأخيه، أو عدم ثناء المختصّين على أخيه.

٣- الفرح بتعرّض أخيه للنقد والتجريح من الآخرين، فبعض المشتغلين بالعلم

---

(١) سير أعلام النبلاء (٤/ ١٩٠).

(٢) حلية الأولياء (٨/ ٤٤٢).

(٣) سير أعلام النبلاء (٨/ ٤٠٧).

(٤) انظر: معالم في طريق العلم، السدحان (٩٧).

ممن ابتُلي بالحسد يفرح إذا رأى من يحسده يتعرّض لنقد من آخَرين، أو تجريح أو بغي أو تطاول.

٤- أن يجد الحاسد في نفسه ضِيقًا إذا سمع أحدًا يمدح أخاه، أو يمدح كتابًا له، أو درسًا، أو موقفًا.

٥- أن يسعَى الحاسد إلى أن يقلّل من قيمة أخيه وتميّز ما يأتي به من إفادة علمية، أو ما يكتبه من أبحاث وتحقيقات ومقالات، ويحرص أن يجدَ فيها خللًا أو عيبًا.

٦- أن يكثر من التعريض به، ومن إطلاق الجمل التي توحي بانحرافه وكثرة الغلَط عنده.

٧- عدم دلالة إخوانه على الدروس المفيدة واللقاءات العلمية النافعة؛ حسدا لهم من أن يفيدوا منها كما أفاد.

فهذه الصور وغيرها لها انتشار واسع بين المشتغلين بالعلم الشرعي والدعوة إلى الله، وترتّبت عليها آثار قبيحة في حياتهم وعملهم.

وقد كثر التحذير من الحسد وتقبيحه في النصوص الشرعية وفي كلام أئمّة السلف، يقول ابن المعتز: «الحسد والنفاق والكذب أثافي الذلّ»[١]، ويقول الإمام أحمد: «اعلموا -رحمكم الله تعالى- أن الرجلَ من أهل العلم إذا منحه الله شيئا من العلم وحُرِمه قرناؤه وأشكاله حسدوه، فرموه بما ليس فيه، وبِئست الخصلة في أهل العلم»[٢].

---

(١) الوافي بالوفيات (١٧/ ٢٤١).

(٢) مناقب الشافعي، البيهقي (٢/ ٢٥٩).

المرض التاسع: التقصير في الواجبات:

فترى بعضَ طلبة العلم مقصّرا في أداء الواجبات الشرعية عليه، فلا يحافظ على الصلوات في وقتها، ولا على أدائها على الوجه المطلوب، ولا يحافظ على زكاته وصيامه وحجّه، ويفرّط في صلة الرحم، وأداء الواجبات المتعلّقة بأبيه وأمه وإخوته وزوجته وأولاده، بحجّة التفرّغ لطلب العلم، أو تقصيرًا وكسلًا منه، وهذه الأمور وإن كانت منتشرةً في عامّة المسلمين، إلا أن وقوعها من المشتغل بالعلم أقبح وأرذل.

ومن أعظم أنواع التفريط في الواجبات التفريطُ في أعمال القلوب الواجبة، فالمسلم تجب عليه أعمال قلبية لا بد أن يقومَ بها، ومن المعيب أن يفرّط طالب العلم في هذا النوع من الواجبات أو يقصّر فيه.

وهذا من أعجب أنواع التقصير؛ إذ إن الإنسان إنما يتعلّم العلم ليعمل به، ويعلِّم الناس العمل به، فإذا كان من يُعَلّم لا يعمَل به فإن هذا تقصير شديد، وفيه إذهاب لبركة العلم ونوره.

وقد كان السلف الصالح من أحرص الناس على العمل بالعلم الذي تعلَّموه، ومن أشدِّهم حذَرًا من الإخلال بالواجبات المناطَة بهم، يقول ابن مسعود رضي الله عنه: «كان الرجل منا إذا تعلَّم عشر آيات لم يتجاوزهن حتى يعرفَ معانيَهن والعملَ بهن»[1]، ويقول بشر الحافي: «أدّوا زكاة الحديث، فاستعملوا من كل مائتي حديث خمسةَ أحاديث»[2].

---

(١) رواه الطبري (١/ ٧٤).

(٢) أدب الإملاء والاستملاء (١١٠).

المرض العاشر: التعصُّب:

وهذا المرض من أكثر الأدواء انتشارًا بين المشتغلين بالعلم والدعوة، ومن أشدّها تأثيرًا عليهم في أحكامهم ومواقفهم.

وللتعصّب والغلوّ الواقع من المشتغلين بطلب العلم صورٌ وأنواع، بعضها ظاهر، وبعضها خفيٌّ، منها:

الصورة الأولى: الغلوّ في الشيخ إلى درجة الحجّيّة، فترى بعض طلبة العلم يتعصّب لشيخه، حتى يجعل الشيخ معيارًا للحق، فما عمله شيخُه فهو الحقّ والكمال، وما قرَّره فهو الصواب الذي لا يُقبَل غيره.

ومن أعجب ما يدخل في هذه الصورة الغلوّ فيما يتركه الشيخ، فتجدُ بعضَ طلبة العلم يرى أن ما تركه شيوخه هو الحقّ والكمال، فانتشر في الساحة العلمية ما يمكن أن يسمى: «الاستدلال بتروك العلماء». ومعناه: أن يعمدَ أحد المتعصِّبة فيحكم على قولٍ أو استدلال أو تقسيم علميّ أو طريقة في الشرح بعدَم الصحّة والكمال بحجّة أن بعض العلماء الذين يتعصَّب لهم لم يفعلوا ذلك.

وبعض السالكين لهذا النوع من التعصّب يحاول أن يضفيَ على طريقته البدعيةِ قداسةً، فيضيف وصفًا مؤثّرًا للعلماء الذين يتعصَّب لهم: فيقول مثلا: هذا القول أو هذا الاستدلال لم يستعمله كبار العلماء عندنا فهو غير مقبول، أو هذا التقسيم لم يذكره العلماء الموثوقون فهو غير صحيح.

وهذا النوع من التعصّب المنحرِف وقع قديمًا، يقول الماوردي: «لقد رأيتُ من هذه الطبقة رجلًا يناظر في مجلس حافل، وقد استدل عليه الخصم بدلالة صحيحة، فكان جوابه عنها أن قال: إن هذه دلالة فاسدة، وجه فسادها أنّ شيخي لم يذكرها،

وما لم يذكره الشيخ فلا خيرَ فيه، فأمسك عنه المستدلّ تعجبًا»[١].

وهو من أغرب أنواع التعصّب وأبعدِها عن المنهج الصحيح؛ لأن الاستدلال بالتروك فيه قدرٌ من الضّعف، حتى تروك النبي ﷺ لا تكون حجة إلا بشروط مذكورة في كتب الأصول وغيرها.

وليس المقصود ممّا سبق عدم اعتبار كلام العلماء، وإنما التعصّب المذموم الذي لا يقدِّر الأمور قدرَها.

الصورة الثانية: دعوى العصمة بلسان الحال، فالشخص قد يصرّح بأنه لا يدّعي العصمة لعالم من العلماء، ولكنه يتعامل معه معاملةَ المعصوم، فتراه لا ينتقده في أيّ مسألة من المسائل، ولا يقبل من أحدٍ ينتقده ولو في مسألة اجتهادية بل وفنّيّة، فهذا في الحقيقة نوعٌ من التعصّب والغلو، ويمكن أن يسمّى: العصمة الحالية.

الصورة الثالثة: المبالغة في الإنكار على المخالفات الاجتهاديّة، والتشنيع على قائِلها، ووصفه بالأوصاف التي لا تكون إلا للمخالف فيما هو قطعيّ.

المرض الحادي عشر: الخضوع لحظوظ النفس:

وهذا المرض يمكن أن يدخل في عدد من الأمراض المذكورة هنا، ولكنه أُفرد لشدّة خطره وكثرة انتشاره وخفاء بعض صُوَره.

والمعنى الجامع لهذا المرض أن يكون طالب العلم مراعيًا لحظوظ نفسه، ولما يصبّ في مصلحته على حساب الحقّ والحقيقة والخير، وله صوَر كثيرةٌ، منها[٢]:

---

(١) أدب الدنيا والدين (٧٠).

(٢) انظر: بحث حظوظ النفس، عبد الملك القاسم، منشور في الشبكة.

أولًا: محبة المدح والثناء، فتراه يطلّ برأسه وترتفع هامته وتشرف نفسه إلى صوت مادح، أو ثناءٍ في مجلس.

ثانيًا: كثرة الحديث عن أعماله وما لاقاه من كدّ وتعب ونصَبٍ، وهذه قد يكون ظاهرها محبّة الدين وبثّ الحماس، لكنه في حقيقة الأمر إبراز أعمال الشّخص، وما يلاقيه في سبيل الدعوة، رغبةً في رفع مقامه لدى الناس، وتصيدِ قلوبهم، وكسبِ ثنائهم.

ثالثًا: نسبة عمل الجماعة إليه، فتراه يُحبّ أن يظهر أمام الرؤساء والمديرين على أنه الرجل الذي قام بالعمل، وهو صاحب الفكرة، وهو الذي أشار بالأمر. وقد يستمرّ به مسلسل الادّعاء حتى يقع في خطر أعظم، وهو نسبه أعمال إليه لم يقم بها، ولا شارك فيها.

رابعًا: ذمّ النفس، يريد بذلك أن يَرى الناس أنه متواضِع عند نفسه، فيرتفع بذلك عندهم، ويمدحونه به، وتنطلق الألسنة بالثناء على تواضعه: ما أزهدَه! وما أنبلَه! وهو -والله- ما أهلكَه!

خامسًا: استغلال الفُرَص لإبراز التفوّق والتميّز، فإذا ذكِرت الكتب فهو الخبير بها والعارف بطبعاتها ومضامينها وما يتعلّق بها، وإذا وقع الحديث عن الشيوخ فهو القريب منهم وصاحب العلاقة القويّة بهم، وإذا ذُكرت المسائل العلميّة فهو الباحث المحقّق المحنَّك العارف بكلّ تفاصيلها وأدلّتها، يفعل ذلك كله قاصدًا لإعلاء مكانته والكشف عن تميّزه. وأما إذا ذُكرت في مقام الإفادة المجرَّدة والمشاركة العلميّة النزيهة فلا بأس به.

سادسًا: ذكر تقدير العلماء والمشايخ له، وأن فلانًا من طلبة العلم خصَّني بحديث

لا يعرفه أحد، وأنّ فلانًا من العلماء سألني عن كذا وكذا، وقام وودَّعني بنفسه. إلى غير ذلك من التصرّفات التي تنمّ عن الخضوع لحظوظ النفس.

سابعًا: ذم الآخرين لإبراز نفسه ووجهة نظهره، فيقول: فلو كنت مكان فلان ما فعلتُ كذا، ويؤكِّد على أن الأمور تؤخَذ بعقل، ثم يسرد لك موقفًا يظهر فيه نفسَه وكيف تصرَّف بحكمة واتّزان، وأنهى الأمر حسب ما يراه.

المرض الثاني عشر: التصدّر وحبّ الشهرة:

فترى بعضَ المشتغلين بالعلم يحرص على أن يظهر نفسه في كلّ مناسبة ليشتهر عند الناس، ويظهر عندهم بالتميز والعلوّ في العلم، ويكون مبجّلًا ومعظَّما بينهم، وهو داء وبيل، ومرض عميق، يقع فيه كثير من المشتغلين بالعلم.

وقد كان الأئمّة من أشدّ الناس حرصًا على الخمول، وعدم الظهور للناس والتصدّر لهم، يقول شعبة: «ربما ذهبُت مع أيوب لحاجةٍ، فلا يدعني أمشي معَه، ويخرج من هاهنا وهاهنا؛ لكي لا يفطن له»[١]، ويقول بشر بن الحارث: «ما اتَّقى اللهَ من أحبَّ الشهرة»[٢]، ويقول الإمام أحمد: «أريد أن أكونَ في شِعبٍ بمكة حتى لا أُعرف، قد بُليت بالشهرة، إني أتمنّى الموتَ صباحًا ومساءً»[٣]، وقيل للإمام أحمد: ما أكثرَ الداعي لك! قال: «أخاف أن يكون هذا استدراجًا»[٤].

---

(١) سير أعلام النبلاء (٦/ ٢٢).

(٢) المصدر السابق، (١٠/ ٤٧٦).

(٣) المصدر السابق، (١١/ ٢١٦).

(٤) المصدر السابق (١١/ ٢١٠).

المرض الثالثَ عشر: القول بلا علم:

وهو نوع من الكَذب، بل هو من أعظم أنواع الكذب؛ لأنه كذب على الله تعالى، فبعض المشتغلين بالعلم يعزّ عليه أن يكون جاهلًا ببعض المسائل، فتراه يتقوَّل على دين الله بلا عِلم.

فيحكم في مسألة ما بحكمٍ لا عِلم سابق له بها، أو يحكم على حديث صحةً أو ضعفًا بلا علم، أو يتجاسر على تفسير النصوص بلا علم، أو يقدِم على الفتوى بلا زاد، أو غيرها من الصور، وكل ذلك عمل قبيح، ومرض لا يجوز للمسلم أن يتقحَّمه.

يقول ابن جماعة فيما ينبغي على طلبة العلم مراعاتُه: «إذا سئل عن ما لم يعلمه قال: لا أعلمه، أو لا أدري؛ فمِن العلم أن يقول: لا أعلم، وعن بعضهم: لا أدري نصفُ العلم، وعن ابن عباس ﷺ: إذا أخطأ العالم لا أدري أُصيبَت مقاتلُه، وقيل: ينبغي للعالم أن يورث أصحابَه لا أدري؛ لكثرة ما يقولها. قال محمد بن عبد الحكم: سألت الشافعي ﷺ عن المتعة: أكان فيها طلاق أو ميراث أو نفقة تجب أو شهادة؟ فقال: والله ما ندري.

واعلم أنّ قول المسؤول: لا أدري لا يضع من قَدره كما يظنه بعض الجهلة، بل يرفعه؛ لأنه دليل عظيم على عظم محلّه، وقوّة دينه، وتقوى ربّه، وطهارة قلبِه، وكمال معرفته، وحسن تثبّته.

وقد رُوِّينا معنى ذلك عن جماعة من السلف، وإنما يأنف من قول: لا أدري من ضعُفت ديانته، وقلَّت معرفته؛ لأنه يخاف من سقوطه من أعين الحاضرين، وهذه جهالة ورقَّة دين، وربما يشهَّر خطؤه بين الناس، فيقع فيما فرَّ منه، ويتَّصف عندهم بما

احترز عنه، وقد أدَّب الله تعالى العلماء بقصة موسى مع الخَضر عليهما السلام، حين لم يَرُدَّ موسى عليه السلام العلم إلى الله تعالى لما سُئل: هل أحد في الأرض أعلم منك»[١].

ويقول ابن مفلح: «قال ابن عباس رضي الله عنه: إذا ترك العالم لا أدري أصيبَت مقاتِله، وكذا قال علي بن حسين، وقال مالك: كان يقال: إذا أغفل العالم لا أدري أصيبَت مقاتله، وقال أيضا: كان رسول الله ﷺ إمام المسلمين وسيّد العالمين، يُسأل عن الشيء فلا يجيب حتى يأتيَه الوحي من السماء، وقال الشعبي: لا أدري نصفُ العلم... وقال عبد الله: سمعت أبي يقول: كان سفيان لا يكاد يُفتي في الطلاق، ويقول: من يحسن ذا؟! من يحسن ذا؟!»[٢].

المرض الرابع عشر: سوء الظن بالآخرين:

وهو نوع من البغي والظلم، فترى بعض طلبة العلم يوسّع جانب السوء فيما يصدر من إخوانه، ويحمله على أسوَأ المحامل.

فبعض طلبة العلم تعوَّد على سوء الظنّ بإخوانه، ويوهم نفسه أنَّ هذا نوع من الفطنة والدّهاء ومعرفة الخفايا!

وهذا المرض شامِل للتصرفات العلمية والعملية، فبعضهم إذا تعامل مع إخوانه في تجارة أو زيارة أو اشترك معه في أي عمل من الأعمال يحمل ما يصدر من إخوانه على المحامل السيئة، ويظنّ بهم الشر والباطل.

وترى بعض طلبة العلم إذا قرأ لبعض إخوانه كلامًا علميًّا، أو سمع منه شيئًا،

---

(١) تذكرة السامع والمتكلم (٢٣).

(٢) الآداب الشرعية (٢/ ٥٨) وما بعدها، فقد نقل آثارا كثيرة عن السلف في هذا الموضوع.

يحمله على أسوأ المحامل، ويظنّ بأخيه الظنون الباطلة، فيظنّ به أنه يريد نصرةَ الباطل، أو التشكيكَ في الحق، أو تأييدَ أهل الانحراف، أو غيرها من المعاني السيّئة، وليس لديه في هذا كلّه إلا احتمالات وظنون وشكوك.

وكلّ هذا من الظنّ الباطل الذي لا يليق بالمسلم أن يظنّه بأخيه المسلم، وقد أمر الله تعالى المسلمين باجتناب الظنون السيئة كما في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ﴾ [الحجرات: ١٢].

وبعض المبتلَين بهذا المرض لم يكتفِ بنفسه، وإنما يجتهد في إقناع بغيره بسوء الظن الذي قام في قلبه، فيحدِث بذلك فرقةً واختلافًا بين المشتغلين بطلب العلم والدعوة إلى الله تعالى.

يقول بكر بن عبد الله: «إياكم وكلَّ أمر إن أصبتم لم تؤجروا، وإن أخطأتم أثمتم»، قيل: ما هو؟ قال: «سوء الظن بالناس، فإنكم لو أصبتم لم تؤجروا، وإن أخطأتم أثمتم»[(١)].

ويقول الغزالي: «سوء الظن حرام مثل سوء القول، فكما يحرم عليك أن تحدِّث غيرك بلسانك بمساوئ الغير، فليس لك أن تحدِّث نفسك وتسيء الظنّ بأخيك»[(٢)]، ويقول: «لا يُستباح ظنّ السوء إلا بما يُستباح به المال، وهو نفس مشاهدته، أو بيِّنة عادلة، فإذا لم يكن كذلك وخطر لك وسواس سوء الظن، فينبغي أن تدفعه عن نفسك»[(٣)].

---

(١) حلية الأولياء، أبو نعيم (٢/ ٢٢٥).

(٢) إحياء علوم الدين (٣/ ١٥٠).

(٣) المصدر السابق، (٣/ ١٥١).

والكرام من الناس يترفّعون عن هذا الخلق الذميم، فتجدهم يلتمسون الأعذارَ لإخوانهم المسلمين، يقول جعفر بن محمد: «إذا بلغك عن أخيك الشيء تنكره فالتمس له عذرًا واحدًا، إلى سبعين عذرًا، فإن أصبته وإلا قل: لعلّ له عذرًا لا أعرفه»[١].

ويقول سعيد بن المسيّب: «كتب إليّ بعض إخواني من أصحاب رسول الله ﷺ أن ضَع أمر أخيك على أحسنِه، ما لم يأتك ما يغلِبك، ولا تظنّنّ بكلمةٍ خرجت من امرئ مسلمٍ شرًّا وأنت تجد لها في الخير محمَلًا»[٢].

المرض الخامس عشر: الجدال والمراء:

والمشتغلون بالعلم الشرعي من أكثر الناس تعرُّضًا لهذا المرض، فإنه كثيرًا ما تُعقد مجالس البحث والمدارسة، وتُدار فيها المناظرات العلميّة، ولكنها تتحوَّل في كثير من الأحيان إلى جدل وخصام ومراء، **يظهر فيها حبّ الانتصار للنفس، والمعاندة للحق، والمكابرة عن الرجوع عن الخطأ، والاتهام والكذب، والتطاول والبغي، وإظهار التشفّي من الآخرين، وغيرها من أصناف المحرَّمات.**

وقد ذكر ابن الجوزي في تلبيس إبليسَ على المشتغلين بالعلم وقوعَهم في التطاول والغيبة، فيقول: «ومن ذلك أنّ أحدهم يتبيّن له الصواب مع خصمِه ولا يرجع، ويضيق صدره؛ كيف ظهر الحقّ مع خصمه؟! وربما اجتهد في ردّه مع علمه أنه الحقّ. وهذا من أقبح القبيح؛ لأن المناظرة إنما وُضعت لبيان الحقّ، وقد قال الشافعي رحمه الله: ما ناظرتُ أحدًا فأنكر الحجّة إلا سقط من عيني، ولا قبِلها إلا هبته...

---

(١) شعب الإيمان، البيهقي (٨٣٤٤).

(٢) المصدر السابق، (٨٣٤٥).

ومن ذلك أنّ طلبهم للرياسة بالمناظرة تثير الكامن في النفس من حبّ الرياسة، فإذا رأى أحدهم في كلامه ضعفًا يوجب قهر خصمِه له خرج إلى المكابرة، فإن رأى خصمَه استطال عليه بلفظ أخذته حميّة الكبر، فقابل ذلك بالسّبّ، فصارت المجادلة مخاذَلة، ومن ذلك ترخّصهم في الغيبة بحجة الحكاية عن المناظرة، فيقول أحدهم: تكلّمت مع فلان فما قال شيئًا، ويتكلّم بما يوجب التشفّي من عرض خصمه بتلك الحجة»[1].

٦ **ومن النتائج التربوية الإيمانية التي يمكن أن نستخلصها من عرض الأمراض السابقة** أن السبب المؤثّر في أكثرها يرجِع إلى قلة الورع والإيمان ومراقبة الله تعالى، وقلّة تعظيم حرمات الله، وليس راجعًا إلى قلة العلم، وهذا يكشف عن أنّنا في حاجة كبيرة إلى تفعيل مدارسة الإيمان، والتواصي به وبتقوى الله تعالى.

فكثير من طلبة العلم يقع في تلك الأمراض، ليس لأنه لا يعرف الحكم الشرعيّ فيها، وإنما لأنه لا يوجد في قلبه ما يردَعه عنها، فالحلّ في مثله إنما يكون بتعلّم الإيمان والتقوى ومذاكرته وإرغام النفس عليه.

وطالب العلم ينبغي أن يكونَ من أحرص الناس على معالجة نفسه وتخليصها من كل ما يشوبها ويتنافى مع العلم الشريف الذي يشتغل بطلبه، يقول أبو عاصم: «من طلب الحديث فقد طلب أعلى الأمور، فيجب أن يكون خيرَ الناس»[2].